OPEN ACCESS
Received: 29 -05 -2025
Accepted: 08- 07-2025

الآداب
للدراسات اللغوية والأدبية

Psychological and Social Alienation in the Autobiographical Novel *I Saw Ramallah* by Mourid Barghouthi

Nadia Barazane *
nbarazane@gmail.com

Dr. Choumayssa Khaloui**
Dr.choumayssa-khaloui@hotmail.fr

Abstract

This study investigates psychological and social alienation in Mourid Barghouthi's autobiographical novel *I Saw Ramallah*, portraying exile as a transformative experience that reshapes the Palestinian self both emotionally and socially. Employing sociological and psychological frameworks, the research traces the protagonist's return after decades of displacement, revealing that repatriation does not dissolve alienation but amplifies it, as the reality of the homeland diverges sharply from its imagined image. The novel captures the complex interplay between personal estrangement and collective dislocation, reflecting the fragmentation of a people suspended between a lost homeland, a substitute exile, a conditional return, and an evolving identity. It further illustrates how language functions as a mirror of alienation, encapsulating the tension between memory and present reality. Through its narrative, *I Saw Ramallah* underscores the existential rupture experienced by the exiled Palestinian under the weight of political oppression and fluid social contexts, demonstrating that the end of physical exile often marks the beginning of a deeper, more profound estrangement.

Keywords: Psychological Alienation, Exile Narrative, Palestinian Diaspora, Palestinian Novel, Identity Formation.

* PhD Scholar in Modern and Contemporary Literature, Department of Arabic Language, Faculty of Arabic Language, Literature and Eastern Languages, University of Algiers 2 – Abou El Kacem Saadallah, Algeria.

** Professor of Modern and Contemporary Literature, Department of Arabic Language, Faculty of Arabic Language, Literature and Eastern Languages, University of Algiers 2 – Abou El Kacem Saadallah, Algeria.

Cite this article as: Barazane, N. Khaloui, C. (2025). Psychological and Social Alienation in the Autobiographical Novel *I Saw Ramallah* by Mourid Barghouthi, *Arts for Linguistic & Literary Studies*, *7*(3): 61 -76 https://doi.org/10.53286/arts.v7i3.2712

© This material is published under the license of Attribution 4.0 International (CC BY 4.0), which allows the user to copy and redistribute the material in any medium or format. It also allows adapting, transforming or adding to the material for any purpose, even commercially, as long as such modifications are highlighted and the material is credited to its author.

الآداب
للدراسات اللغوية والأدبية

OPEN ACCESS
تاريخ الاستلام: 2025/05/29م
تاريخ القبول: 2025/07/08م

الاغتراب النفسي والاجتماعي في السيرة الروائية (رأيت رام الله) لمريد البرغوثي

نادية برزان [*]
nbarazane@gmail.com

د. شميسة خلوي [**]
Dr.choumayssa-khaloui@hotmail.fr

ملخص:

يسعى هذا البحث إلى مقاربة مظاهر الاغتراب النفسي والاجتماعي في رواية رأيت رام الله لمريد البرغوثي، باعتبارها تجربة سردية تكشف تداعيات النفي والمنفى على الذات الفلسطينية، في أبعادها الشعورية والاجتماعية. كما يعد نصا إشكاليا من خلال طرحه لظاهرة الاغتراب بمستويها النفسي والاجتماعي، سواء في المنفى أو حتى بعد العودة إلى وطن تغير عليه وتغير هو عنه، ساعيا إلى تصوير مشهد التمزق الفلسطيني بين وطن مفقود ومنفى بديل وعودة مشروطة وهوية قيد التشكل. ويتتبع البحث مسار البطل العائد إلى وطنه بعد غياب طويل، ويبرز كيف أن العودة إلى الوطن لا تُنهي الاغتراب، بل تضاعف حدّته، حين يصطدم العائد بصورة واقع يختلف تمامًا عن المخيال الذي ظل يحمله. ويعتمد البحث على المنهجين الاجتماعي والنفسي بغية فهم الأبعاد العميقة لتجربة الاغتراب التي عاشها مريد البرغوثي، سواء على الصعيد النفسي الداخلي أو على صعيد علاقته بالمجتمع والوطن. يتشكل بحثنا من مقدمة، وتمهيد نظري، وأربعة مباحث، المبحث الأول: الاغتراب، المبحث الثاني: تجليات الاغتراب النفسي والاجتماعي، المبحث الثالث: اللغة بوصفها مرآة للاغتراب، المبحث الرابع: الاغتراب وتشكل الهوية. وتوصل إلى أن رواية "رأيت رام الله" قد تناولت سيرة اغتراب فردي يعكس اغترابا اجتماعيا، إذ يتقاطع النفسي بالاجتماعي وتتحول العودة إلى الوطن إلى تجربة جديدة من الغربة، تكشف التمزق الوجودي الذي يعانيه الفلسطيني المنفي في ظل واقع سياسي قاهر وسياق اجتماعي متحول.

الكلمات المفتاحية: الاغتراب النفسي، رواية المنفى، الشتات الفلسطيني، الرواية الفلسطينية، تشكل الهوية.

---

[*] طالبة دكتوراه في الأدب الحديث والمعاصر، قسم اللغة العربية، كلية اللغة العربية وآدابها واللغات الشرقية، جامعة الجزائر -2- أبو القاسم سعد الله، الجزائر.

[**] أستاذ التعليم العالي في الأدب الحديث والمعاصر، قسم اللغة العربية، كلية اللغة العربية وآدابها واللغات الشرقية، جامعة الجزائر -2- أبو القاسم سعد الله، الجزائر.

للاقتباس: برزان، ن. خلوي، ش. (2025). الاغتراب النفسي والاجتماعي في السيرة الروائية (رأيت رام الله) لمريد البرغوثي، *الآداب للدراسات اللغوية والأدبية*، *7*(3): 61- 76 https://doi.org/10.53286/arts.v7i3.2712

© نُشر هذا البحث وفقًا لشروط الرخصة Attribution 4.0 International (CC BY 4.0)، التي تسمح بنسخ البحث وتوزيعه ونقله بأي شكل من الأشكال، كما تسمح بتكييف البحث أو تحويله أو الإضافة إليه لأي غرض كان، بما في ذلك الأغراض التجارية، شريطة نسبة العمل إلى صاحبه مع بيان أي تعديلات أُجريت عليه.

مقدمة:

تُعدّ ظاهرة الاغتراب من أبرز السمات المميّزة للعصر الحديث، إذ تُصنّف حالةً سيكولوجية – اجتماعية، تؤثّر بعمق في الفرد والمجتمع معًا، وتُعبّر عن انفصال الإنسان عن محيطه الواقعي والاجتماعي. ورغم حداثة المصطلح، فإن الاغتراب ظاهرة موغلة في القِدم، ترافقت مع نشأة الوعي الإنساني، وتشكل واحدة من أعقد الإشكاليات التي واجهت البشرية في مختلف العصور.

وقد باتت هذه الظاهرة محطّ اهتمام الدراسات النفسية والاجتماعية والفكرية، نظرًا لانعكاساتها الوجودية العميقة، وما تخلّفه من آثار تمسّ كيان الإنسان في أبعاده النفسية والثقافية والسياسية والدينية. ولأن الأدب يُعد مرآة تعكس هموم الإنسان ومآسيه، فقد احتلّ الاغتراب حيّزًا مهمًا في النصوص الإبداعية، وفي هذا الإطار تبرز رواية "رأيت رام الله" لمريد البرغوثي بوصفها شهادة ذاتية وروائية توثّق رحلة العودة إلى الوطن بعد عقود من الغياب، وتكشف حجم التحولات التي طرأت على الذات، والمكان.

كما أن البحث قد استأنس بعدة دراسات سابقة لها علاقة ببحثنا منها:

رسالة ماجستير: تماثل البنى الدّالة وتجلّيات الوعي الذّاتي في (السيرواية) (رأيت رام الله) لمريد البرغوثي نموذجًا لمروة أسامة المشهداني من جامعة قطر (2022).

وكذلك رسالة تخرّج لمرحلة البكالوريوس، معنونة بالمجتمع الفلسطيني بعد احتلال إسرائيل: دراسة في رواية "رأيت رام الله" لمريد البرغوثي بنظرية الواقعية الاجتماعية، جورج لوكاتش لياسين الملك (2022). من الجامعة الإسلامية الحكومية مولانا مالك إبراهيم.

ويسعى البحث إلى تحليل مظاهر الاغتراب النفسي والاجتماعي في تجربة السارد، والكشف عن أسبابه وانعكاساته على تشكّل الهوية الفردية والجماعية ضمن سياق المنفى الفلسطيني، ومحاولة إبراز العلاقة بين المنفى والانتماء، من خلال تتبّع أثر الانفصال عن الوطن في تشكيل وعي الذات وصورتها عن الآخر والمكان من خلال إشكالية متمثلة في جملة من التساؤلات منها:

كيف تتجلّى مظاهر الاغتراب النفسي والاجتماعي في رواية رأيت رام الله لمريد البرغوثي؟

وكيف تنعكس تجربة المنفى والعودة المؤجلة على وعي السارد بذاته وهويته؟

وما العلاقة بين الشعور بالانتماء والاغتراب في الرواية؟

وهل العودة إلى الوطن تمثّل نهاية الاغتراب أم تعمّقه؟

وللإجابة عن ذلك تشكل البحث من مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، المبحث الأول: الاغتراب، المبحث الثاني: تجليات الاغتراب النفسي والاجتماعي، المبحث الثالث: الاغتراب وتشكل الهوية.

تمهيد نظري:

أولا: لمحة عن الأديب الفلسطيني مريد البرغوثي وكتاباته

ولد الشاعر والكاتب الفلسطيني مريد البرغوثي (موقع العويس، 2025) عام 1944 في قرية دير غسانة قرب رام الله. وارتبط اسمه بأدب المنفى والشتات، وقد شكّلت أعماله مرآة لمعاناة الفلسطينيين في ظل الاحتلال والاغتراب. تزوّج من الروائية المصرية رضوى عاشور، ولهما ابن واحد هو الشاعر والأكاديمي تميم البرغوثي.

تابع دراسته الثانوية في رام الله، ثم سافر إلى مصر عام 1963، حيث التحق بجامعة القاهرة وتخرّج سنة 1967 من قسم اللغة الإنجليزية وآدابها. لكن الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية في العام ذاته حال دون عودته إلى وطنه، وهو ما مثّل بداية تجربته مع المنفى. عرف بكتاباته التي تمحورت حول القضية الفلسطينية، لا سيما روايته رأيت رام الله التي شكّلت منعطفًا مهمًّا في أدب السيرة الفلسطينية المعاصرة.

توفي يوم 14 فبراير 2021 عن عمر ناهز 76 عامًا، تاركًا وراءه إرثًا أدبيًا غنيًا في الشعر والنثر.

تميّز مريد البرغوثي بحضور أدبي وثقافي لافت، تُوّج بعدة جوائز عربية مرموقة، من بينها جائزة الشعر من جامعة القاهرة (1998)، والميدالية الشعرية من المعهد العالي للفنون التطبيقية في العام ذاته، بالإضافة إلى جائزة الشعر من المؤسسة الثقافية الإقليمية في المغرب سنة 2000. شارك في العديد من الفعاليات الثقافية الدولية، كما ألقى محاضرات في جامعات عربية وغربية مرموقة كأكسفورد، ومدريد، وأوسلو. وفي عام 2015، تولّى رئاسة لجنة تحكيم الجائزة العربية للرواية.

خلف مريد البرغوثي رصيدًا أدبيًا ثريًا، شمل اثني عشر ديوانًا شعريًا أبرزها: فلسطيني في الشمس (1974)، طال الشتات (1987)، منطق الكائنات (1996)، الناس في ليلهم (1999)، زهر الرمّان (2000) ومنتصف الليل (2005)أما في مجال النثر، فاشتهر بكتاب "رأيت رام الله" الذي يُعدّ من أبرز أعمال السيرة الذاتية الفلسطينية، و"ولدت هناك، وُلدت هنا"، حيث استعاد فيهما ملامح الهوية والمنفى. وقد شكّلت هذه الأعمال مجتمعة شهادة أدبية وإنسانية على مأساة الشتات الفلسطيني.

ثانيا: الاغتراب

الاغتراب ظاهرة إنسانية ضاربة في القدم، تمسّ الفرد في جوهر علاقته بالمجتمع والذات والعالم، فهو تجربة وجودية ونفسية واجتماعية تعكس انفصال الإنسان عن ذاته أو عن محيطه، سواء كان هذا الانفصال شعوريًا أو قسريًا. وقد ازداد الاهتمام بهذا المفهوم مع التحولات الكبرى التي شهدها العالم، من حروب وهجرات وتغيرات اجتماعية واقتصادية، جعلت الإنسان معرّضًا باستمرار لفقدان الانتماء، وقد تطوّر مفهومها عبر الحقول الفلسفية والنفسية والاجتماعية، مما سنستعرضه فيما يلي:

أ. مفهوم الاغتراب

يُعدّ الاغتراب من المفاهيم المركّبة التي شغلت الفكر الفلسفي والاجتماعي منذ العصور القديمة. ورغم تعدّد تعريفاته وتباين مناهج تناوله، إلا أنّ جوهره يتمثل في حالة انفصال أو انشطار بين الإنسان وذاته، أو بينه وبين محيطه الاجتماعي والثقافي. وقد ظهر هذا المفهوم بقوة مع تحوّلات الحداثة، حيث صار يُستخدم للدلالة على فقدان الانسجام بين الفرد والعالم، والشعور بالعجز، واللاانتماء، وفقدان المعنى.

ويذهب بعض الباحثين إلى اعتبار الاغتراب نتيجة طبيعية لتعقيد المجتمعات الحديثة، إذ "يتضخم ويتشعّب كلما تعقدت المجتمعات البشرية وتطورت" (محمود، 1984، ص 85). وقد شكّل هذا المفهوم أساسًا لفهم الكثير من الظواهر النفسية والسوسيولوجية، مثل القلق الوجودي، وفقدان الهوية، والتهميش الاجتماعي، والعزلة الشعورية.

كما نجده عند "ديكارت" من خلال ما يسمى بالفلسفة الديكارتية:

أ- الكوجيتو الديكارتي: حيث يتبين اغتراب الأنا عن ذاته، وهو ما يمكن أن يطلق عليه اسم الاغتراب الميتافيزيقي (Alienation mètaphysique).

ب- الاغتراب الانطولوجي: حيث ترد الحياة الانفعالية إلى آلية الأرواح الحيوانية.

ج- الاغتراب الوجودي: حيث تعيش الذات تجربة الانفعال في نطاق "أنا أفكر" (شاروني، 1979، ص 70).

أما "هيغل" فقد استخدم مصطلح الاغتراب بشقيه السلبي والإيجابي "فالأول ناتج عن ظروف سلبية تقف حاجزا للفرد عن اندماج وتأقلم في البنية الاجتماعية، وبذلك تصبح الذات منشورة عن ذاتها، والثاني يؤدي إلى توقف الفرد عن استقلالية ذاته وتأكيدها لصالح البنية الاجتماعية"(شاحت، 1980، ص 105-107). ويضيف "الوجوديون" أن الإنسان مدان بالاغتراب وأنه مهما حاول التملّص من سطوته، فإنه سيموت مغتربا لأن الحياة نفسها اغتراب"(طحطح، 1993، ص 34).

ومن وجهة نظر علم الاجتماع فقد يعد أساسا "لوصف مجموعة مختلفة من الظواهر تتضمن الإحساس بالانفصال وعدم الرضا عن المجتمع، والإحساس بوجود انهيار أخلاقي في المجتمع، وبالعجز عن مواجهة المؤسسات الاجتماعية والطبيعة الإنسانية للمؤسسات البيروقراطية"(الصائغ، 2001، ص 60، 61).

وقد عبّر عن الاغتراب من وجهة نظر علم النفس "كحالة من اللاقوة التي تستدعي الانسحاب عن الحياة الاجتماعية، فهو متعلق بما يحدث للفرد من اضطرابات نفسية وعقلية، وما يستشعر من غربة وفتور وجفاء في علاقته بالآخرين"(محمود، 1993، ص35).

كما نال الاغتراب حظا من حقل الدراسات العربية الأدبية والنقدية، وكان له نصيب وافر "من التحليل والتمحيص، ومن هؤلاء الدارسين من كانت له تجربة حياتية معيشة مع هذه الظاهرة، ومنهم من كانت وقفته وقفة دراسة وتحليل فقط"(العبد الله، 2005، ص 21)، فنجد على مستوى الشعر الشعراء الصعاليك الذين فضلوا الانفصال عن مجتمعهم والتمرّد على قوانين القبيلة، ومن ذلك (لامية الشنفرى) التي جسدت في إحدى أبياتها الانفصال التام عن المجتمع القبلي في قوله (الشنفرى، 1996، ص 60):

ثلاثةُ أصحابٍ: فؤادٌ مشيعٌ وأبيضُ إصليتٌ، وصفراءُ عيطلُ "

أما على مستوى النثر فقد برزت الرواية في مقدمة الخطابات الأدبية التي ترصد ظاهرة الاغتراب، وتحاول معالجتها، من منطلق خطورتها وانعكاساتها على الفرد والمجتمع، فقد أضحت تسلبهم فاعليتهم وإنسانيتهم، نجد ذلك ممثلا في المشهد الفلسطيني وغيره من دول العالم الثالث، فقط ما يميز المجتمع العربي "أنه مجتمع منتزع من صميم ماضيه، غائب عن حاضره، وإن كان يعمل -بجهد ومشقة- في سبيل بناء مستقبله" (إبراهيم، 1975، ص 154).

كما نجد الاغتراب سمةً أساسية في روايات بلزاك (Balzac)، وزولا (Zola)، وتولستوي (Tolstoy)، ودوستويفسكي (Dostoevsky)، و"روايات ديكنز (Dickens) أوليفر تويست (Oliver Twist)، وعناقيد الغضب (The Grapes of Wrath)، والبؤساء (Les Misérables) لفيكتور هوغو (Victor Hugo) ".

بالإضافة إلى العديد من الأعمال الأدبية التي طغت عليها سمات الاغتراب، نجد الإلياذة لهوميروس (Homer)، وكذا مسرحيات سوفوكليس (Sophocles)، ومسرحيات ويليام شكسبير (Shakespeare)، التي تكون معظم شخصياتها إمّا مغتربين عن الآخرين، أو عن عالمهم الخارجي، أو عن ذواتهم" (محمود، 1984، ص 85).

ب. أسباب الاغتراب

يشكّل الاغتراب حالة معقّدة ومتعددة الأبعاد، لا تنشأ من فراغ، بل تتولد عن مجموعة من الأسباب المتشابكة التي تتفاعل فيما بينها لتُنتج شعور الإنسان بالغربة عن ذاته أو عن محيطه، ولذلك فإن فهم أسباب الاغتراب يعدّ خطوة أساسية لفهم ملامح التجربة الإنسانية المعاصرة، والقلق الوجودي الذي يلازم الإنسان في الأدب والفكر والواقع، وعليه يمكن حصر أسباب الاغتراب في مستويين أساسيين:

1- الأسباب الاجتماعية

وتتمثل في:

1.ضغوط البيئة الاجتماعية والفشل في مقابلة هذه الضغوط.

2. الثقافة السياسية السائدة.

3. اضطرابات التنشئة الاجتماعية.

4 مشكلة الأقليات ونقص التفاعل الاجتماعي والاتجاهات الاجتماعية السالبة والتفرقة في المعاملة، وسوء التوافق المهني وعدم مناسبة العمل للقدرات، وانخفاض الأجور (الصديق، 2015، ص 71).

وبناء عليه فإن ما سبق من أسباب اجتماعية تسهم في إحداث اختلال بنيوي داخل المجتمع، يؤدي إلى شعور الفرد بالتهميش والاغتراب، ويُضعف من اندماجه الاجتماعي، مما ينعكس سلبًا على رؤيته لذاته ولموقعه ضمن الجماعة.

2_ الأسباب النفسية

وتتمثل في:

1.الصراع: ويكون ين الدوافع والرغبات المتعارضة مما يؤدي إلى التوتر الانفعالي والقلق واضطراب الشخصية.

.2 الإحباط: يرتبط الإحباط بالشعور بخيبة الأمل والفشل والعجز التام والشعور بالقهر وتحقير الذات.

.3 الحرمان: حيث تقل الفرصة لتحقيق دافع أو إشباع الحاجات كما في حالة الحرمان من الرعاية الوالدية الاجتماعية (الصديق، 2015، ص 72).

ويتضح من ذلك أن الفرد، حين يتعرض للصراع والإحباط والحرمان، تتولد لديه حالة نفسية مضطربة تتسم بمشاعر سلبية كالعجز والقهر، مما يؤدي إلى تشكل عقد نفسية قد تلازمه، وتنعكس على سلوكياته وتصوراته تجاه ذاته والآخر.

ج. أشكال الاغتراب

إن تنوع أشكال الاغتراب يعكس تعقيد التجربة الإنسانية، ويكشف عن هشاشة العلاقة بين الإنسان والعالم الذي يعيش فيه، ونظرا لتعدد جوانب تجربة الاغتراب، تنوّعت أشكاله وفق السياق الذي يظهر فيه، ومن أبرز هذه الأشكال:

1-الاغتراب الاجتماعي

يتجلّى من خلال شعور الفرد بالعزلة عن مجتمعه، وفقدان التفاعل مع الآخرين، مما يفضي إلى البرود الاجتماعي، والعجز عن ممارسة الدور الطبيعي ضمن الجماعة. إنه اغتراب عن الآخر، في بعده القيمي والمعياري كما أنه يعني "الانسحاب عن المجتمع والعجز عن التلاؤم..." (الحمداني، 2011، ص 136).

2-الاغتراب النفسي

يُعبّر عن حالة فقدان التوازن الداخلي، وانفصال الذات عن قيمها ومشاعرها وهويتها. وهو شعور بالوحدة والوحشة وعدم الانسجام مع الذات أو المحيط، قد يقود إلى الانغلاق أو الانهيار النفسي، أو حتى التفكير في العدم والموت، "ومن ثم الانقطاع عن الناس، وعدم تواصلهم أو الانسجام معهم وعدم التعبير عن مشاعرهم وعواطفهم" (المفلاحي، 2013، ص 123).

3-الاغتراب السياسي

يظهر حين يشعر الفرد بالعجز أو التهميش تجاه السلطة السياسية، أو انعدام القدرة على المشاركة الفعلية في صناعة القرار، فيعيش انقسامًا بين الوطن والانتماء، خاصة حين يغدو المواطن غريبًا في وطنه، يُقصى عن التأثير فيه أو

الدفاع عنه، "ذلك أن مجموعة الممارسات الاجتماعية في مجتمع ما، ما هي إلا ممارسة أيديولوجية في الأساس، فسلوك الشرائح الاجتماعية مدفوع بمفاهيم وأفكار وقناعات متجسمة في الجسم الاجتماعي ككل"(جريح، 1997، ص 683).

والاغتراب السياسي هو شعور الفرد أو الجماعة بأنهم غير ممثلين أو غير مؤثرين في النظام السياسي، وأن لا دور لهم في اتخاذ القرارات أو في صناعة مستقبلهم، وقد يكون هذا نتيجة الاستبداد، والاحتلال، والقمع، أو غيرها من مظاهر التهميش.

4- الاغتراب الديني

يتمثل في فقدان العلاقة الروحية الحقيقية بين الفرد وعقيدته، أو الانخراط في أنماط تدين مغتربة عن جوهر الدين. وقد أشار بعض المفكرين إلى أن هذا النوع من الاغتراب يتجلى حين ينسب الإنسان قواه وقدره لقوة خارجية مطلقة، دون وعي ذاتي، مما يولّد خضوعًا فكريًا واجتماعيا.

ويعطي فتح الله خليفة مفهوما عن الاغتراب الديني فيقول: "إن الاغتراب في الإسلام جاء في ثلاث درجات هي: اغتراب المسلم بين الناس، اغتراب المؤمن بين المؤمنين، واغتراب العالم بين المؤمنين، فغربة العلماء هي أشد أنواع الاغتراب لقلتهم بين الناس، وقلة مشاركة الناس لهم" (خليفة، 2003، ص 36).

5-الاغتراب الثقافي

يعني شعور الفرد بعدم الانتماء إلى ثقافة مجتمعه، أو التنافر مع الثقافة السائدة أو المتوارثة، سواء بسبب التغريب، أو بسبب صدمة حضارية، أو هيمنة قيم دخيلة. ويتجلى هذا الشكل في فقدان الهوية الثقافية، وضعف التواصل، ورفض الأعراف، والسلوك الانسحابي، بل وقد يقود إلى العنف والتطرف والانكفاء على الذات، كما يشير إريك إيريكسون في ذات الصدد إلى أن الاغتراب الثقافي "عملية متعلّمة من الواقع الذي يعيشه الفرد في مجتمعه، وأن حالات التمرد والعصيان والخروج عن الأعراف والقيم إنما تعبر عن أساليب الرفض لثقافة المجتمع، بل والشعور بالغربة " (يعقوبي، 2017، ص 114).

د. تجليات الاغتراب النفسي والاجتماعي في رو اية "رأيت رام الله"

تُعد رواية (رأيت رام الله) لمريد البرغوثي من أبرز النصوص التي اشتغلت على تمثيل الاغتراب الفلسطيني في مستوياته المتعددة، لاسيما النفسي والاجتماعي، إذ تطرح الرواية تجربة عودة لا تُعيد الانتماء، بل تؤكد القطيعة بين الذات ووطنها، بين المنفي وذاكرته، بين الحاضر والماضي. ولا تقف الرواية عند حدود التوثيق للعودة بعد غياب دام ثلاثين عامًا، بل تحفر في عمق الهوية الممزقة والمنفى المستمر، لتكشف عن صدمة الفلسطيني حين يواجه وطنًا غيّره الاحتلال.

1-الاغتراب النفسي

يُعدّ الاغتراب النفسي أعمق التجارب الإنسانية التي تصيب الفرد في صميم وجوده، إذ يتمثل في شعور داخلي بالعزلة والتمزق، ينشأ من فقدان الانسجام مع الذات أو مع العالم المحيط، ويعبّر عن أزمة وجودية تتفجّر بفعل الصدمات أو الظروف القهرية. وفي رأيت رام الله، يصوّر مريد البرغوثي هذا الاغتراب بصورة مكثفة، حيث تتقاطع تجربة المنفى مع تيه الهوية واستحالة الانتماء، في ظل غياب الوطن وتبدد المعنى.

في هذا السياق، تتبدى الغُربة كتجربة خارجية ذات طابع مكاني، يُعبَّر عنها بالابتعاد الجسدي عن الوطن أو الأهل. ورغم ما تحمله من شوق وحنين، فإنها تظلّ محدودة بظرفها المكاني والزمني، ولا تؤدي بالضرورة إلى أزمة وجودية. فالغربة، في كثير من الحالات، يمكن أن تُعاش بسلام داخلي إذا بقيت روابط الهوية والانتماء متماسكة داخل الوعي الفردي.

غير أن هذه الغربة قد تتحوّل إلى اغتراب حين تتجاوز حدودها الجغرافية لتلامس بنية الشعور والوعي؛ إذ يتحوّل الابتعاد الخارجي إلى انفصال داخلي، ويتمزق الفرد بين حاضر لا ينتمي إليه وماضٍ يصعب استعادته. وهنا تتداخل الغربة

والاغتراب، دون أن تتطابقا، فالأولى قد تكون عابرة، بينما الثانية تُشكّل شرخًا مستمرًا في هوية الفرد، ووعيه بذاته، والعالم من حوله، كما تجلى ذلك بوضوح في سردية البرغوثي وتجربته الوجودية في المنفى.

ومن هذا المنظور النظري للغربة والاغتراب، ينتقل النص إلى تمثيل حيّ لهذه الثنائية المعقّدة، حيث تتجسد الغربة بدايةً كابتعاد مكاني، ثم تتحوّل تدريجيًا إلى اغتراب داخلي عميق يفتك بوعي السارد ووجدانه، إذ يبدأ النص من نقطة الغربة العميقة التي عاشها السارد منذ أن غادر فلسطين طالبًا إلى القاهرة، وحتى لحظة عودته المؤقتة. فطيلة عقود من المنفى، تراكمت داخله مشاعر الفقد، والحنين، والقلق، والشتات، لتكوّن صورة داخلية لوطنٍ محمول في الذاكرة، لا تطابقه صورة الواقع حين يعود إليه. يقول: "الغربة كالموت، المرء يشعر أن الموت هو الشيء الذي يحدث للآخرين... أصبحت ذلك الغريب الذي كنت أظنه دومًا سواي" (البرغوثي، 2011، ص 7).

عبّر مريد البرغوثي بأسلوب إنساني عميق عن الموت النفسي الذي ولّدته تجربة التنقّل القسري من مكانٍ إلى آخر، نتيجة الأوضاع السياسية والشتات الفلسطيني، حيث تنعكس هذه التجربة في تمزق الذات بين ماضٍ منقرض وحاضرٍ متحوّل. هذا التمزق يتجسّد في علاقة الفرد بوطنه، فلسطين، التي غدت في نظر أبنائها عالَمًا غريبًا لا يعترف بهم كما كانوا يتوقّعون، بل أصبحت رمزًا لفقدان الانتماء واغتراب الهوية، يقول:" كيف رمتنا إلى كل هذا الصبر وكل ذلك الموت؟" (البرغوثي، 2011، ص 15)، وقوله: "الموتى لا يطرقون الباب" (البرغوثي، 2011، ص 21).

تُقدّم الرواية الغربة بوصفها قدرا نفسيا، لا باعتبارها ظرفا خارجيا. فحتى بعد العودة، لم يشعر البرغوثي بالانتماء، بل ظلّ يراوح بين الهويات: "ها أنا أسير نحو أرض القصيدة. زائرا؟ عائدا؟ لاجئا؟ مواطنا؟ ضيفا؟... لا أدري" (البرغوثي، 2011، ص 31). وقوله: "شعور بالانقباض لا أريد أن أعترف به، شعور بالأمان يرفض أن يكتمل" (البرغوثي، 2011، ص31).

وتبلغ الاغترابية ذروتها حين يعجز الكاتب عن التعرّف على الأماكن والأشخاص، وكأن المنفى لم يكن فقط مكانيًا، بل وُجدانيًا وزمنيًا. فيقول: "ها أنا أمشي بحقيبتي الصغيرة على الجسر، ثلاثون عامًا من الغربة. كيف استطاعت قطعة خشب داكنة أن تُقصي أمّة بأكملها؟ "(البرغوثي، 2011، ص14-15).

يعاني البرغوثي من شعور بالعجز أمام الاحتلال والشتات، ما ينعكس على صوته السردي الممتلئ بالحزن والانكسار. هذا الشعور ليس فقط سياسيًا، بل نفسيًا وجوديًا، حيث تتلاشى قدرة الإنسان على التأثير في مصيره. إذ العودة نفسها ليست خلاصًا، بل شكل جديد للاغتراب، إذ تحوّل الوطن إلى مرآة للخسارة، والماضي إلى عبء يُفقد الإنسان إحساسه بالحاضر، فيصير الزمن ذاته مصدرًا للاغتراب، نجده يقول: "تملي الحياة على الغريب تكيفا يوميا، قد يكون عسيرا في بداياته لكنه يقل عسرا مع مرور الأيام" (البرغوثي، 2011، ص 157)، وقوله أيضا: "غرباء تجتمع على صاحبها وتغلق عليه الدائرة، يركض والدائرة تطوّقه...يغترب عن ذكرياته...إنه يتعالى دون أن ينتبه إلى هشاشته الأكيدة" (البرغوثي، 2011، ص 157).

يستحضر البرغوثي بعضا من ذكرياته المؤلمة بنبرة حزن فيتحدث عن وفاة والده بقوله:" مات أبي...لم أعرف ما الذي أفعله بنفسي...وليس حولي من يواجعني ويكذب (صادقا) (البرغوثي، 2011، ص 161). فعندما يُمنع من حضور جنازة والده بسبب المنفى، لا يفقد الأب فحسب، بل يُحرم من طقس الوداع، من الحزن كما يجب، من الانتماء الزمني والمكاني للحظة الوداع، يقول:" تكتشف أنك لا تستطيع المشاركة في تشييعه إلى القبر لأنك بلا جواز سفر أو بلا فيزا أو بلا إقامة أو لأنك ممنوع من الدخول " (البرغوثي، 2011، ص 161).

إن الحزن في الرواية لا يظهر بوصفه عاطفة عابرة، بل كحالة شعورية دائمة تنبع من الوعي الممزق بفقد الوطن حيث يقول: "تحتشد في روحه هذه الغربات، لن يداويه منها أحد حتى الوطن "(البرغوثي، 2011، ص 159).

2-الاغتراب الاجتماعي

الاغتراب الاجتماعي هو انفصال داخلي عميق بين الإنسان ومحيطه الاجتماعي، حيث يفقد الفرد شعوره بالانتماء الفعلي إلى الجماعة التي يعيش فيها، سواء كانت عائلية أو وطنية أو ثقافية. لا يكمن هذا الاغتراب في المسافة الجغرافية، بل في المسافة الشعورية؛ حين يعيش الفرد بين الناس، لكنه لا يشعر أنه منهم، حين يتحوّل حضوره الاجتماعي إلى صمت، وتفاعله إلى قلق، وعلاقاته إلى واجهات لا دفء فيها.

يتجلى هذا الاغتراب في مظاهر متعددة، كالشعور بعدم التقدير، أو العجز عن التأثير، أو الإحساس بأن المجتمع لا يعكس الذات ولا يعبّر عنها. وقد يعيشه الإنسان حين يعود إلى بيئة تغيّرت دون أن تترك له موطئ قدم، أو حين يُحاصر بمجتمع فقدت قيمه معناها، فتصبح الجماعة مصدر ضيق لا سندًا للهوية.

في السياق الفلسطيني، يُعدّ الاغتراب الاجتماعي تجربة جماعية متجذرة، نشأت بفعل النكبة والشتات وفقدان الاستقرار، حيث وجد الفلسطيني نفسه منفيًا عن وطنه، أو غريبًا في أرضه. يعيش الفرد الفلسطيني تمزقًا في الانتماء، سواء داخل المجتمع المضيف الذي لا يشعر فيه بالاندماج، أو داخل وطنه الذي تغيّر بفعل الاحتلال والشتات. وقد يتفاقم هذا الشعور لدى من نشؤوا خارج البلاد، إذ يحملون هوية معلقة بين ما يتذكرونه وما لم يعرفوه، فينكمش حضورهم الاجتماعي أو يتحوّل إلى صراع صامت مع الجماعة والذاكرة والواقع.

وتتجلى هذه الصورة بوضوح في رواية رأيت رام الله، حيث يتحوّل الاغتراب الاجتماعي من تجربة عامة يعيشها الفلسطيني في الشتات، إلى تجربة شخصية تتلبّس السارد ذاته. فحين يعود، لا يجد مجتمعه كما تركه، بل يواجه واقعًا غريبًا عنه، يُعمّق شعوره بالانفصال واللاانتماء.

ويظهر الاغتراب الاجتماعي في الرواية من خلال انقطاع الكاتب عن المجتمع الذي تركه، ثم عاد ليجده قد تغيّر جذريًا. فالعلاقات تبدّلت، والقيم تهشّمت، والمكان فقد دفء الألفة. يعبّر عن هذا بقوله:

"تجولت في شوارع رام الله يوميًا، أردت استعادة تلك الإيقاعات والصور العتيقة للمكان... أليس طريفا وغريبا أننا عندما نصل إلى مكان جديد يعيش لحظته الجديدة نروح نبحث عن عتيقنا فيه... هل للغرباء جديد؟ أم أنهم يدورون في دنياهم بسلال ملأوها ببقع الماضي، البقع تتساقط لكن اليد لا تسقط سلتها"(البرغوثي، 2011، ص62).

تتكشف معاناة السارد من التهميش داخل مجتمعه نفسه، إذ لم يعد يُنظر إليه فردا من الجماعة، بل بمثابة الغريب الذي يُستقبل بلباقة ظاهرية، دون أن يُدمج حقًّا في النسيج الاجتماعي. "الغريب هو من يجدّد إقامته، هو الذي يملأ النماذج ويشتري الدمغات والطوابع، هو الذي عليه أن يقدم الإثباتات والبراهين، هو الذي يسألونه دائما: «من يُقال له: من وين الأخ؟» أو يسألونه: «وهل الصيف عندكم حار؟ هو الذي لا يستطيع أن يروي روايته بشكل متصل ويعيش في اللحظة الواحدة أضغاثا من اللحظات... الغرب هو الذي يقول له اللطفاء من القوم: «أنت في وطنك الثاني وبين أهلك». هو الذي يحتقرونه لأنه غريب أو يتعاطفون معه لأنه غريب والثانية أقسى من الأولى"(البرغوثي، 2011، ص 08).

لم يعُد السارد يُعامَل باعتباره جزءًا أصيلًا من الجماعة، بل بات يُنظر إليه كغريب حضر من خارج السياق، غريب يُرحَّب به بمراسم الضيافة لا برابط الانتماء. هذه النظرة التي يختبرها من المحيطين به تعكس هشاشة الهوية الجمعية، وتحوّل الانتماء من كونه شعورًا أصيلًا إلى إجراء رمزي مشروط ومؤقت.

وتسود الرواية لغة التمزّق والعزلة، لا بسبب الاحتلال فقط، بل أيضًا بسبب تفسّخ العلاقات الاجتماعية، والقطيعة بين الأجيال، واختلاف الأفق القيمي بين من عاش النكبة، ومن وُلد في ظل الاحتلال، يقول:

"وماذا تفعل أجيال كاملة وُلدت في الغربة، لا تعرف حتى القليل الذي عرفه جيلي من فلسطين؟... «الفلسطينيين الغرباء عن فلسطين» ولدت في المنفى ولا تعرف من وطنها إلا قصته وأخباره... الاحتلال خالَق أجيالا بلا مكان تتذكر ألوانه ورائحته وأصواته بلا مكان أول خاص بها تتذكره وهي في إقامتها الملفقة"(البرغوثي، 2011، ص 74).

كما يُبرز البرغوثي تصدّع المشهد المجتمعي الفلسطيني، حين يتحدث عن التفاوتات الاجتماعية والثقافية: "البعض لا يكاد يفارق سجادة الصلاة، والبعض لا يكاد يفارق زجاجة الويسكي، البعض يتعلم أو يعلّم، والبعض ذهب مع الفدائيين ولم يعد أبدًا"(البرغوثي، 2011، ص 68).

لم يعد السارد يُعامَل بوصفه فردًا من الجماعة، بل باعتباره غريبًا حضر من خارج التجربة اليومية، شخصًا يُستقبل بلباقة الضيافة لا بحرارة الانتماء. هذه المسافة التي يُبقيها الآخرون حيّة في تعاملهم معه، تكشف تصدّع الهوية الجمعية، وتحيل الانتماء إلى علاقة عارضة، تتحدد بشروط اللحظة لا بجذور الانتماء الحقيقي، يقول: "أمّا المسافة بين أحبابي وبيني، فهي أقبح من حكومة!" (البرغوثي، 2011، ص 162).

ففي رواية "رأيت رام الله" لا يظهر الوطن بوصفه يقينًا، بل بوصفه سؤالًا مطروحًا، مشكوكًا فيه، تتآكل صورته في وجدان المنفي الذي يعود ليكتشف أنه لم يعد يعرفه، ولم يعد الوطن يعرفه. يُقدَّم المنفي ككائن معلّق، لا ينتمي تمامًا إلى حيث كان، ولا يجد مكانه حيث عاد. إنه غريب بين الغرباء، يحمل وجعًا فلسطينيًّا خالصًا، هو وجع الأرض التي تغيّرت، والبيت الذي لم ينتظر، والناس الذين اعتادوا الغياب. بهذا، يصبح الوطن تجربة مؤلمة، لا تعاش في الاستقرار، بل في التمزق بين ما كان يجب أن يكون وما لم يحدث أبدًا، يظهر ذلك جليا في قول البرغوثي: "أحاول أن أضع الغربة بين قوسين...وصل الحاضرين بالغائبين والحضور كلّه بالغياب كلّه، وصل المنفى بالوطن" (البرغوثي، 2011، ص 195)، وقوله: "الغرباء يلتقون بالغرباء، وتجربة الموجوعين العرب علمتني أن وجعي كفلسطيني هو جزء من كل... إنّ قصص الأوطان المجروحة كقصص المنافي الآمنة...في المنفى لا تنتهي الغصة إنها تستأنف" (البرغوثي، 2011، ص181-182).

إنّ رواية (رأيت رام الله) لا تقدّم سردًا تقليديًا عن المنفى والعودة، بل تُفكّك وهم العودة باعتبارها استعادة للانتماء، لتكشف عن تناقضات الذات الفلسطينية الممزّقة. فالاغتراب في النص مركّب: هو اغتراب عن المكان، عن الزمن، عن الآخرين، بل عن الذات نفسها. ويتحوّل الوطن من مأوى إلى مرآة للفقد، لتصبح الغربة ليست خارجية، بل داخلية، جذرية، وممتدة، خاصة في ظل الاحتلال الذي يسهم في تفكيك المجتمع من الداخل؛ فالخوف، والحواجز، والانقسام الجغرافي والسياسي، تؤدي إلى عزلة الأفراد بعضهم عن بعض، وتحوّل المجتمع إلى فسيفساء ممزقة، لا إلى كيان متماسك.

ثالثا: اللغة بوصفها مرآة للاغتراب في رواية "رأيت رام الله"

تلعب اللغة في رواية رأيت رام الله دورًا بنيويًا وجماليًا محوريًا، يتجاوز أدوارها الوصفية والتقريرية، لتتحول إلى أداة كشف وجودي تعبّر عن عمق التجربة الاغترابية. فهي ليست فقط وسيلة لنقل الأحداث أو عرض الأفكار، بل مرآة تعكس تمزّق الذات، وتشكّل بنية نفسية وجمالية تصوغ وعي المنفى والهوية والفقد.

فالكاتب يوظّف لغة مكثفة، حمّالة للتوتر، تجمع بين البوح والتأمل، وبين الشاعرية والتقريرية، بما يتناسب مع طبيعة النص الذي يتأرجح بين السيرة الذاتية والرؤية الوجودية. لقد استطاع البرغوثي، من خلال لغته، أن يحوّل الغربة إلى تجربة مكتوبة، حيث "الكلمات" نفسها تبدو مغتربة، قلقة، ومحمّلة بحمولة انفعالية عميقة.

يقول في إحدى مقاطع الرواية: "أنا هنا الآن. جسدي في المكان. لكنني أنظر إليه من مسافة"(البرغوثي، 2011، ص48).

إنّ هذا "الانفصال اللغوي" يعكس انفصالًا داخليًا في الشعور بالانتماء، فاللغة تصبح وسيلة للتعبير عن المسافة بين الذات والمكان، بين الحاضر والماضي، بين ما هو كائن وما يجب أن يكون. كما يكثر استخدام الأساليب الانعكاسية مثل التكرار، والتساؤل، والتضاد، باعتبارها آليات لغوية تُعبّر عن الحيرة، والتيه، واللايقين.

ومن أبرز السمات الأسلوبية التي تجسّد البُعد الاغترابي في النص:

الأسئلة المتكررة:

إذا كانت الصورة الشعرية تمثّل كثافة الدلالة وانزياح اللغة عن مألوفها، فإن تكرار الأسئلة في الرواية يُعدّ بدوره أداة فنية وجمالية تعبّر عن عمق التمزّق الداخلي واللايقين الذي يسكن الذات الساردة. فالأسئلة المتكررة ليست بحثًا عن إجابات بقدر ما هي مرايا للحيرة، وأصوات باطنية تُفصح عن انكسار المعنى وتشوّش الهوية. وبهذا، تتحوّل اللغة إلى ساحة صراع داخلي، حيث يواجه السارد ذاته والواقع والذاكرة بمنطق السؤال لا بمنطق التقرير.

أسئلة تكشف عن قلق الهوية والتيه المعرفي، من قبيل: "من أنا الآن؟ زائر؟ عائد؟ منفيّ؟ ابن البلد؟ هل يطلون معي من النافذة؟ ما معنى أن أعود أنا أو غيري من الأفراد؟ من أين جاء أبو الحبايب؟ هل يعرفونني جيدا يا ترى؟ هل استيقظت لدي مرة أخرى تلك الرغبة...؟"

وهي أسئلة وجودية تتجاوز البعد السياسي إلى بعد ontologique (أنطولوجي)، حيث اللغة لا تبحث عن إجابة، بل تعبّر عن الفراغ الوجودي.

ومن خلال تتبّع البنية اللغوية في الرواية، يتّضح أن الكاتب لا يعبّر عن تجربته بأسلوب مباشر أو تقريري، بل يجنح إلى لغة موارية، مشبعة بالتوتر والحمولة الشعورية، لغة تسائل الأشياء ولا تصفها، وتستبطن الغربة بدلاً من أن تشرحها. ويُعدّ توظيف الصورة الشعرية أحد أبرز الآليات التي اتكأ عليها السرد للتعبير عن هذه الاغترابية العميقة، حيث تحضر الاستعارة والتكثيف كوسيلة لتكثيف الإحساس بالانفصال والتمزّق.

الصور الشعرية الكثيفة:

تعتبر الصورة الشعرية من أبرز الأدوات التعبيرية التي توظفها اللغة الأدبية لصياغة المعنى بطريقة إيحائية تعتمد على الانزياح والتكثيف والترميز. وهي لا تنقل الواقع كما هو، بل تعيد تشكيله وفق منظور ذاتي يُحمّل الأشياء دلالات تتجاوز حدودها المباشرة. وتُسهم الصورة في تحويل اللغة من أداة وصفية إلى طاقة شعورية، تُعبّر عن الوجدان وتكثّف الإحساس. وكلما اشتدت كثافة الصورة، زاد حضور البعد النفسي والتأملي فيها، لتصبح اللغة معادلًا فنيًا لحالات شعورية معقدة يصعب التعبير عنها مباشرة.

وهذا ما نجده بوضوح في رأيت رام الله، حيث تتكثّف الصور الشعرية في وصف تفاصيل العودة والمنفى والذاكرة، فتُحوّل التجربة من تسجيل خارجي إلى انفعال داخلي حيّ، يعكس عمق الاغتراب وتشظّي الانتماء.

وقد استعان بها الكاتب في وصف المواقف الحياتية البسيطة، مما يكشف عن انزياح لغوي يجعل من التفاصيل اليومية رمزًا للتيه والخذلان، مثل قوله: "هذا الزعيم يعرف كيف يطالب الدنيا بأن تحترم الدم الإسرائيلي... يعرف كيف يطالب الدنيا بأن تحترم الدمع الإسرائيلي"(البرغوثي، 2011، ص 214).

الاختزال والتكثيف:

يُعدّ الاختزال والتكثيف من أبرز الخصائص الأسلوبية في الكتابة الأدبية الحديثة، إذ يقوم الكاتب بتقليص البنية اللغوية إلى حدّها الأدنى دون أن يُفقدها طاقتها التعبيرية أو دلالتها الشعورية. ويُتيح هذا الأسلوب للغة أن تحمل أكثر مما

تقول، عبر إيحاءات مكثفة، وصور موجزة، وجمل قصيرة تنطوي على شحنة وجدانية أو فكرية عالية. فالاختزال لا يعني الفقر اللغوي، بل هو اختيار متعمّد لشحن المعنى في أقل عدد من الكلمات، بما يخلق توترًا دلاليًا يتجاوز حدود المباشرة.

وفي رأيت رام الله، يتجلّى هذا الأسلوب بوضوح، إذ يعتمد مريد البرغوثي على جمل قصيرة، مشحونة بالدلالة، تنقل الإحساس بالفراغ، والانقطاع، والحيرة، وتُعبّر عن حالات الاغتراب والانكسار دون إسهاب أو شرح، مما يمنح النص كثافة تأملية وإنسانية عميقة كقوله: "ثلاثون عامًا تختصرها رائحة واحدة... الغبار" وقوله: "لم نلتقِ كأسرة كاملة بعد ذلك إلا بعد عشر سنوات...في زيارة" (البرغوثي، 2011، ص 34).

وهنا تتحول اللغة إلى صوت داخلي يُكثّف الاغتراب، لا بوصفه حالة شعورية فقط، بل بوصفه بنية نصية.

اللغة بوصفها منفى بديل:

في ظل ضياع الوطن، تتخذ اللغة عند مريد البرغوثي بُعدًا تعويضيًا، تصبح هي الملجأ والمنفى البديل في آنٍ معًا. فالكاتب، حين يفقد القدرة على الانتماء المكاني والاجتماعي، يحتمي بالكلمات، يعيد تشكيل العالم بالحكي، ويؤسّس وطنًا لغويًا قادرًا على احتواء ما لا يحتمله الواقع.

وفي هذا السياق، تبدو الرواية كما لو كانت رحلة لغوية في الذات، تعيد كتابة الوطن بعيون المنفى، وتستدعي الهوية المهددة بالفقد عبر بلاغة السرد، وعبر استعادة الذاكرة بلغةٍ مفعمة بالحنين، ولكن أيضًا بالمرارة، فحين يُجبر الإنسان على مغادرة وطنه أو الانفصال عن بيئته الثقافية والاجتماعية، تصبح اللغة أداة للبقاء، ومكانًا يسكن فيه الحنين والهوية، يقول البرغوثي: "أذكر أنني كتبت ذلك أو قلته سابقا لماذا أستعيده الآن؟ لا أدري...أتساءل إن كنت قادرا على الارتقاء بارتباطي بالوطن بحيث يرقى إلى أغنيتي عنه" (البرغوثي، 2011، ص51). تتحول اللغة إلى وطن بديل من خلال كتابته بلغته الأم فيقول: "حمّص وفول مدمّس وكعك بالسمسم أيضا. تشرب الشاي في فنجان أو كاسة يا أبو الأنس؟" (البرغوثي، 2011، ص56)، وقوله: "إحنا يا عمي خلّينا على قدّ الكاسات!... تواللّه عال!... وما يطلعو من الخزانة...إحنا إلنا الله!" (البرغوثي، 2011، ص57).

إضافة إلى ذلك فإن البرغوثي قد استخدم لغة الشعر بوصفها بديلا عن أرض غابت، أو وطن فقد، يقول: "هل الشاعر يعيش في المكان أم الوقت؟ وطننا هو شكل أوقاتنا فيه...متاعبي في المنفى" (البرغوثي، 2011، ص51)، وقوله:

"متعة العمر أن لا ترانا

وأمتع منها، إذا ما رأتنا، مراجلنا في الهرب.

وأمتع من كل هذا،

إذا استلمت خيزرانتها واحدا،

وانضرب! (البرغوثي، 2011، ص93).

كما يتجلى الحنين أيضا في الكلمات التي استخدمها السارد، حيث تصبح اللغة وسيلة استحضار للزمن والمكان والذات الضائعة، فعندما ينفصل المنفي عن مكانه الأول، عن طفولته، عن ذاكرته الجماعية، عن الصور والأصوات التي شكّلت كيانه. في هذه الحالة لا يجد وسيلة لاستعادة ما فقد إلا من خلال اللغة، حيث يقول: "الشعور بالبداية الجديدة والشعور باستئناف الماضي المكسور، يتزاحمان لدى الجميع، الشعور بوضوح العودة إلى البيت يزاحمه الشعور بغموض المستقبل الجماعي للأسرة وللمحيطين بها في الأماكن البعيدة"(البرغوثي، 2011، ص87-88).

يحاول البرغوثي استعادة بعض من التفاصيل البسيطة أو اللحظات التي تعيد تركيب المكان المفقود، فتصبح اللغة كخزّان للذاكرة ينقّب فيها المنفي عن أجزاء من ذاته القديمة فيقول: "كان عليّ أن أقسّم الذاكرة بين الماضي العبثي الذي مرّ والحاضر الملموس الذي يتشكل معهما وفي بيتنا ذاته، والمستقبل الذي لا تحدده قراراتنا وحدنا" (البرغوثي، 2011، ص87).

ويقول: "جسد منيف يملأ المكان، لم يكن طيفا ولا تذكّرا، هو ذاته، بقامته الطويلة، بنظارته، بوجهه الأشقر وشعره الجميل... تحديدا في هذه الساحة المتهدّمة...أراد أن يحوّلها إلى ساحة للعروض الفنية الجماعية، ومراسم للرسامين" (البرغوثي، 2011، ص 96).

يمكن القول إنّ اللغة في رأيت رام الله ليست مجرّد وسيط تواصلي، بل هي كيان مغترب في حد ذاته، وشريك وجودي للذات المنفية. إنها لغة متوترة، متقطعة أحيانًا، شديدة الذاتية، تعبّر عن فقد المعنى، وانهيار المرجعيات، وغياب الاستقرار. وقد استطاع مريد البرغوثي أن يحوّل لغته إلى مرآة دقيقة لحالة الاغتراب، تمزج بين الحضور والغياب، وبين القول والسكوت، وبين الوطن والمنفى، كما تتجلى براعته أيضا في تحويل تلك اللغة إلى سجل نفسي وتاريخي، يجمع ما فرقته الجغرافيا، ويعيد بناء ما هدمه الاحتلال والمنفى.

رابعا: الاغتراب وتشكُّل الهوية في رواية (رأيت رام الله)

تُعدّ الهوية من أكثر المفاهيم تداخلاً مع تجربة الاغتراب، إذ تمثل الانتماء إلى الذات والمكان والجماعة، في حين يشكّل الاغتراب تقويضًا لهذه المرتكزات. ومن هذا المنطلق، تبدو رواية (رأيت رام الله) مشغولة بشكل عميق بإشكالية الهوية في سياق المنفى والشتات والاحتلال، إذ تتكشّف ملامح الذات المتشظية التي لم تعد تعرف لنفسها انتماءً ثابتًا.

ويطلق " مفهوم الهوية على نسق المعايير التي يعرف بها الفرد ويُعرّف، وينسحب ذلك على هوية الجماعة أو المجتمع أو الثقافة، والهوية ليست كيانا يعطى دفعة واحدة إلى الأبد، إنها حقيقة تولد وتنمو وتتكون وتتغاير، وتشيخ وتعاني من الأزمات الوجودية والاستلاب، والهوية هي حصيلة لمجموع من أنساق العلاقات والدلالات التي يستقي منها الفرد معنى لقيمه، ويضع لنفسه في ضوئها نظاما يشكل في إطاره هويته" (خليفة، 2003، ص 60).

تُطرح الهوية بوصفها سؤالًا معقّدًا لا يحمل إجابة يقينية، بل يظل مفتوحًا على احتمالات متعددة. فالسارد لا ينظر إليها كحقيقة ثابتة أو معطى نهائي، بل يتعامل معها بوصفها مسارًا دائم التحول، يمر بالتشكّل والانكسار والتفاوت تبعًا للزمن والتجربة والمنفى، يقول البرغوثي: "لا أنتمي إلى هناك تمامًا، ولا إلى هنا على وجه الدقة... أنتمي إلى الغياب و: "هل نحن في الوداع واللقاء نحن؟ هل أنتِ أنتِ؟ هل أنا أنا؟ هل يرجع الغريب حيث كان؟ وهل يعود نفسه إلى المكان؟ ومن يلم عن جبين الآخر التعب؟ واضحة في ذاكرتي، وغائبة عن مكانها" (البرغوثي، 2011، ص 170).

هذا "الانتماء إلى الغياب" هو تعبير شعري عن اغتراب الهوية، إذ تنحلّ روابط الانتماء المكاني والثقافي والزمني، ليحل محلها شعور بالتيه واللايقين. فالهوية في الرواية ليست جوهرًا ثابتًا، بل بناء هشّ يُعاد تشكيله باستمرار عبر الألم والحنين والذاكرة.

1-الهوية بين الذات والآخر

من أبرز تجليات تشوّش الهوية في الرواية، اصطدام السارد بـ"الآخر" سواء أكان ذلك الآخر السلطة المحتلة، أو المجتمع المتغير، أو حتى صورته الذاتية القديمة التي لم يعد يعرفها. فالرواية تسجّل هذا الانشطار بين "أنا الآن" و"أنا الذي كنت"، كما تسجّل الغربة التي يشعر بها الكاتب تجاه أبناء وطنه الذين لم يعرفوا المنفى، في حين فقد هو الوطن من داخله.

يقول في ذلك: "كلّ واحدٍ منّا له وطن، أما أنا فلي ذكرى وطن... لست ابن البلد تمامًا، ولا غريبًا بالكامل. أنا بينهما، في الظلّ، في الفراغ"(البرغوثي، 2011، ص 68)، حيث يحاول البرغوثي ترميم المسافة بين الماضي والحاضر، وبين الذات والآخر.

2-الهوية بوصفها كتابة

يتحوّل فعل الكتابة في الرواية إلى محاولة لاستعادة الذات الضائعة، وبناء هوية بديلة أو مؤقتة عبر السرد. فالهوية لا تُستعاد بالجغرافيا، بل باللغة، ولا بالانتماء الجغرافي، بل بالذاكرة المكتوبة. وفي هذا السياق، يصبح النص ذاته فضاء لإعادة تشكيل الذات الفلسطينية، بعيدًا عن النماذج الجاهزة أو الخطابات السياسية.

الهوية في رأيت رام الله إذًا، ليست مجرد خلفية للاغتراب، بل هي نتاجه، وصورته المعكوسة. إنها هوية "مأزومة"، تصارع النفي والنسيان، وتحاول إعادة تشكّلها في فضاء لغوي وشعوري هشّ، لكنه صادق، ونمثّل لذلك بقول البرغوثي: "هذه الهوية إذًا هوية لمّ الشمل" (البرغوثي، 2011، ص 165)، وقوله: "وهل الوطن هو الدواء حقا لكل الأحزان؟ وهل المقيمون فيه أقل حزنا؟" (البرغوثي، 2011، ص 178).

تُبرز الرواية أنّ الاغتراب ليس فقط حالة شعورية، بل عامل بنيوي في تكوين الهوية. فالذات المغتربة تفقد يقينها بالانتماء، وتعيد النظر في صلتها بالأرض واللغة والآخر فالهوية في هذا النص ليست جاهزة أو مكتملة، بل تُكتب من خلال التمزق، وتُعاد صياغتها وسط الأسئلة، والتشظي، والحنين، والانقطاع. وهكذا تصبح الهوية عند البرغوثي سيرورة مفتوحة، مؤلمة، لكنها في الوقت نفسه فعل مقاومة هادئ، وسردي، في وجه الاستلاب والطمس . يقول: "هواجس وأسئلة وصور عن الحياة التي مرّت والحياة التي تنتظرني وتنتظرنا" (البرغوثي، 2011، ص 195)، وقوله: "عشنا غربتنا في بلاد الآخرين، وعايشنا غرباء يشبهوننا، فهل كتبنا غربتنا؟ ما الذي يجعل قصتنا، نحن بالذات، جديرة بأن يصغي لها العالم؟"(البرغوثي، 2011، ص 192).

النتائج:

إن رواية "رأيت رام الله" لمريد البرغوثي تمثل نموذجًا سرديًا دالاً على تجربة الاغتراب الفلسطيني، بما تحمله من عمق إنساني وتوترات شعورية تعكس واقع المنفى والانفصال والانتماء المشوّه. لقد كشفت الدراسة، من خلال التحليل النفسي والاجتماعي، عن تعدد مستويات الاغتراب التي تنطوي عليها الرواية، بدءًا من الاغتراب الذاتي والوجودي، وصولًا إلى الاغتراب الثقافي والسياسي.

وقد بيّن التحليل أنّ مريد البرغوثي لم يُقدّم تجربة العودة باعتبارها استعادة للوطن، بل بوصفها لحظة صادمة تكشف حجم الانفصال بين الذات والمكان. فالوطن لم يعُد كما كان، ولا السارد بقي كما كان، مما يجعل من العودة فعلًا اغترابيًا جديدًا لا يُفضي إلى المصالحة، بل إلى مزيد من التمزّق.

كما تجلّى دور اللغة في تشكيل هذا الشعور بالاغتراب، إذ استخدمها الكاتب بوصفها أداة تعبير ومقاومة في آن واحد، فجاء النص مشحونًا بالشاعرية، والقلق، والحنين، والفراغ من قوله:"القبر، الغريب، الغائب، الشقاء، العزاء، الحرب، الاحتلال، جرح، أشتاق "، وغيرها، وكلها سمات تعمّق البنية النفسية للاغتراب. وقد عبّرت الرواية أيضًا عن أزمة الهوية التي يُولدها المنفى، حيث تصبح الذات الفلسطينية في مواجهة دائمة مع الآخر، ومع ذاكرة مجروحة، وزمن منكسر، ومكان لا يعترف بها.

وعليه فإننا خرجنا بمجموعة من النتائج أبرزها:

1. الاغتراب في الرواية بنية شاملة تمسّ الجوانب النفسية والاجتماعية والثقافية والسياسية، ولا تقتصر على البعد المكاني فقط.

2. يتجلى الاغتراب النفسي في القلق الداخلي والانفصال عن الذات، حيث يُصوّر السارد ذاته غريبا حتى عن جسده، وعن بيئته العاطفية، ويعاني من التوتر المستمر بين ما كان عليه وبين ما أصبح عليه بعد النفي.
3. العودة إلى الوطن لا تنهي الاغتراب، بل تعيد إنتاجه، من خلال تصادم الذاكرة مع الواقع، وتباعد ما هو مُتخيل عما هو قائم.
4. يظهر الاغتراب الاجتماعي من خلال التهميش الرمزي الذي يعيشه السارد داخل مجتمعه نفسه، إذ يُنظر إليه كزائر أو دخيل رغم انتمائه المكاني والوطني، مما يعكس تصدّع العلاقة بين الفرد والجماعة في ظل الظروف السياسية والاحتلال.
5. اللغة في الرواية ليست مجرد وسيلة تعبير، بل فضاء وجودي يعيد الكاتب من خلاله بناء الذات وتشكيل الذاكرة.
6. تعبّر اللغة في الرواية عن الانقسام النفسي والتوتر الوجودي، فنجدها مشبعة بالأسئلة والشكوك والحنين المؤلم، مما يعكس بوضوح الاغتراب النفسي والاجتماعي الذي يعيشه السارد.
7. الهوية الفلسطينية في النص هوية مفتوحة، مأزومة، ومتجددة، تتشكّل في صراع دائم بين الماضي والحاضر، وبين الذات والآخر، وبين الوطن والمنفى.
8. العمل الأدبي في هذه الرواية تجاوز الوظيفة الجمالية إلى البُعد الإنساني والسياسي، فغدا وثيقة وجدانية تعكس تشظي الإنسان الفلسطيني في زمن الاغتراب القسري.

إذن هذه الدراسة قامت بمحاولة تفكيك البنية الاغترابية في خطاب أدبي فلسطيني حديث، يمزج بين السيرة الذاتية والتأمل الوجودي، ويوظّف اللغة بوصفها أداة مقاومة للاندثار. كما تسهم في فهم العلاقة المعقّدة بين الأدب والهوية، وتُضيء الكيفية التي يُعبّر بها الكاتب عن فقدان الوطن، لا بوصفه مكانًا فقط، بل بوصفه كيانًا نفسيًّا ورمزيًّا ومعنويًّا.

المراجع:

مفلاحي، أ. ع. (2013). *الاغتراب في الشعر العربي في القرن السابع الهجري، دراسة اجتماعية نفسية* (ط.1) دار غيداء للنشر والتوزيع.

محمود، إ. (1984). حول الاغتراب الكافكاوي، *عالم الفكر*، *15* (2)، 77-124.

الحمداني، إ. م. ر. ص. (2011). *الاغتراب: التمرد قلق المستقبل* (ط.1). دار صفاء للنشر والتوزيع.

إبراهيم، ز. (1975). معنى الاغتراب عند الإنسان العربي المعاصر، *مجلة العربي*، (194)، 152-155.

الشاروني، ح. (1979). الاغتراب في الذات، *عالم الفكر*، *10* (1)، 69-82.

العبد الله، ي. (2005). *الاغتراب دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلون الروائية* (ط.1). المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع.

الصائغ، م. ذ. ز. (2001). اغتراب وغرب، *آفاق الثقافة والتراث*، *6*(33)، 57-66.

الصديق، م. و. (2015). *الاغتراب السياسي في الوسط الطلابي* (ط.1). مركز الكتاب الأكاديمي.

البرغوثي، م. (2011). *رأيت رام الله* (ط.4). المركز الثقافي العربي.

خليفة، ع. م. (2003). *دراسات في سيكولوجية الاغتراب*، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.

يعقوبي، ع. (2017). *الاغتراب الثقافي لدى الشباب الجزائري* [أطروحة دكتوراه غير منشورة]، جامعة الجزائر 2، الجزائر.

طحطح، ف. (1993). *الغربة والحنين في الشعر الأندلسي* (ط.1). مطبعة النجاح الجديدة.

محمود، ر. (1993). *الاغتراب سيرة ومصطلح* (ط.4). دار المعارف.

جريح، ر. ب. (1997). الاغتراب المكاني في رواية (أضغاث مدينة)، عبد الرضا صالح محمد أنموذجا، *مجلة الكلية الإسلامية الجامعة*، 1(67)، 670-699.

شاحت، ر. (1980). *الاغتراب* (كامل يوسف حسن، ترجمة)، المؤسسة العربية للدراسات.

References

Muflahi, A. A. (2013). *Alienation in Arabic Poetry in the Seventh Hijri Century: A Socio-Psychological Study* (1st ed.). Ghaidaa Publishing and Distribution.

Mahmoud, I. (1984). On Kafkaesque Alienation. *World of Thought*, 15(2), 77–124.

Al-Hamdani, I. M. R. S. (2011). *Alienation: Rebellion, Anxiety of the Future* (1st ed.). Safaa Publishing and Distribution.

Ibrahim, Z. (1975). The Meaning of Alienation in the Contemporary Arab Person. *Al-Arabi Magazine*, (194), 152–155.

Al-Sharouni, H. (1979). Alienation in the Self. *World of Thought*, 10(1), 69–82.

Al-Abdullah, Y. (2005). *Alienation: An Analytical Study of the Characters in Tahar Ben Jelloun's Novels* (1st ed.). Arab Institute for Studies, Publishing, and Distribution.

Al-Sayegh, M. D. Z. (2001). *Alienation and Estrangement. Horizons of Culture and Heritage*, 6(33), 57–66.

Al-Siddiq, M. W. (2015). *Political Alienation in the Student Environment* (1st ed.). Academic Book Center.

Barghouti, M. (2011). *I Saw Ramallah* (4th ed.). Arab Cultural Center.

Khalifa, A. M. (2003). *Studies in the Psychology of Alienation*. Gharib Press for Printing, Publishing, and Distribution.

Yaqubi, A. (2017). *Cultural Alienation among Algerian Youth* [Unpublished doctoral dissertation]. University of Algiers 2, Algeria.

Tahtah, F. (1993). *Estrangement and Nostalgia in Andalusian Poetry* (1st ed.). Al-Najah Al-Jadida Press.

Mahmoud, R. (1993). *Alienation: Biography and Term* (4th ed.). Dar Al-Maaref.

Jurayh, R. B. (1997). Spatial Alienation in the Novel *Adghath Madinah* (Abdul-Ridha Saleh Mohammed as a Model). *Journal of the Islamic University College*, 1(67), 670–699.

Schacht, R. (1980). *Alienation* (Kamil Yusuf Hassan, Trans.). Arab Institute for Studies.

Al-Shanfara. (1996). *His Diwan* (Emil Badi' Yaqub, Ed.). Arab Book House.